

مستوى التعليم العربي في الميزان

بفلم الأستاذ أحمد الأخضر

مدير المكتب الجامعي للبحث العلمي
(الرباط)

القسم الاول

تمهيد :

والميزانية توفرها وقتها ، وتحسين وظيفة المعلم وعدم تحسينها ، ووجود اطر التعليم وعدمها ، وحصول التلاميذ على الكتب والادوات التعليمية وعدم حصولهم عليها ، الى غير ذلك من الشروط الضرورية العامة العادية لكل تعليم كيفما كان نوعه وبلاده ولغته . واذا اختلف جزء من هذه الاجزاء اثر ذلك الاختلال على صحة التعليم وكأنه كائن حي هو الآخر ، كلما اشتكى منه عضو تألم له الجسم بكامله . كل هذا نسبيا كما هو الشأن في جميع الامور .

كثر الكلام عن موضوع انخفاض المستوى في التعليم العربي ، وأبدت فيه الآراء العديدة ، منها ما هو نتيجة ملاحظات واقعية أو نظريات عامة ، ومنها ما هو صادر عن عواطف صادقة أو أفكار سديدة ، إلا أن الباحث المتعمق في قضية انخفاض مستوى تعليمنا يجد أن كل هذه الآراء ، مهما كان مبعثها ، صحيحة لا ينبغي نبذها كلها أو اعتبار بعضها دون بعض . وبعبارة أخرى كل ما قيل في هذا الموضوع جائز بصفة عامة وكل رأي فيه مبني على أساس له نصيب من الصحة ، إذ كل قول من هذه الأقوال يدل على وجه من وجوه الانخفاض . وهذه الآراء المختلفة إذا دلت على تعدد الوجوه فانها تشعرتنا بأن الموضوع خطير وانه لايجدر بنا أن نقلل من أهميته ونستصغره ، بل يجب أن نقتنع بعكس ذلك وأن نقول : بما أننا لم نصل بعد الى حل المشكل فذاك لانه مشكل معتد عويص وان لم يكن كذلك في حد ذاته فهو كذلك في مكوناته . ومكونات التعليم كثيرة بطبيعة الحال ، منها المباني والاثاث ، والسن والعدد والبعد والقرب ، والصحة والمرض ، والفقر والغنى ، والتفتيش والمراقبة ، وأوقات العمل وفراغها ، والتجهيز حسنه وسيئه ،

ولكنني لا أظن أن جميع مدارسنا ناقصة في هذه الميادين ، ولا أظن أن العالم العربي يفتقر كله الى هذه الحاجيات . ولا اعتقد كذلك أن التعليم العربي إذا اشتكى من انخفاض المستوى فذلك لأن جزءا من هذه الاجزاء المذكورة نقصه إذ هناك مدارس في بلدان عربية تتوفر فيها الشروط السابقة وتخرج اجيالا تعتبرها سالحة من معنيين وأساتذة وأطباء ومهندسين . ومع ذلك فان الاجماع ما زال على ان المسر بالعمرية ناتج بالنسبة الى المتكون بلغة من لغات الامم الراقية . هذا هو الامر الواقع العام . وفي كل امر خبيثة الحال تدارت نسبي ، منه أن المتكونين بالعمرية إذا اكتسبوا لغة اجنبية أمكنهم اتمام تكوينهم بها وسبحوا في مستوى لا بأس به .

بقي لنا النظر في رمي اللغة العربية بالنقص .
 وفعلا فقد رماها بالنقص كثير ممن لهم تكون عربي . نهل هذا
 ورماها بالنقص كثير ممن لهم تكون عربي . نهل هذا
 صحيح ؟ ان الجرائد والمجلات تزخر بمتلات كثيرة في
 هذا الموضوع ، تناولتها اقلام من يقولون بأن العربية
 بخير واقلام من ينكرون هذا الراي ويزعمون بأن العربية
 ليست بخير . اما نحن فقولنا هو ما يلي : صحة
 لغتنا في يدنا وذلك نسبيا بطبيعة الحال لان زمام الامر
 في هذا الميدان منه تسم تنصرف فيه ومنه تسم ليس في
 ايدينا ولا سلطة لنا عليه لان اللغة ، وهي كائن حي ،
 لها ناموسها الخاص في حد ذاتها تخضع له — وله وحده —
 في تطورها البدني ، وفي نفس الوقت تتغذى بما يغذيها
 به اهليا من مواد حسية وشعورية وفكرية وعقلية
 وروحانية الخ.. فمثلها كمثل شجرة تنمو طبقا لتواميس
 احيائية وطبقا لما يتوفر لها من مواد غذائية . ولنترك
 هذه المسألة مؤقتا لان صلتها بموضوعنا صلة غير
 مباشرة .. نسبيا بطبيعة الحال ! وسنعود اليها من بعد
 ان شاء الله !

لا يتعلم ابناءؤنا بالعربية ما يتعلمونه باللغة الاجنبية

نقول — واصلب موضوعنا هو انخفاض
 المستوى — ان المستوى يحدد بالنسبة الى درجة معينة.
 وهذه الدرجة هي ، في الوقت الراهن درجة مستوى
 التعليم عند الامم الراقية التي نقتدي بها ونسعى في
 الالتحق بركب حضارتها . وبما ان التكوين هو حصلة
 معلومات ما ، في ميدان ما ، يكتسبها الشخص بواسطة
 تعليم ما ، بقي ان المستوى في هذا التكوين هو تلك
 الدرجة التي يجب على الشخص ان يحصل عليها بواسطة
 ذلك التعليم . فاذا كان التعليم ناقصا كان التكوين ناقصا
 واذا كان التعليم في المستوى كان التكوين كذلك في
 المستوى . وقولنا بأن المعلمين غير اكفاء معناه ان تكوينهم
 ناقص واذا كان تكوينهم ناقصا فذلك اما من ناحية
 المعلومات واما من ناحية التلقين . ولنترك ناحية التلقين
 (البيداغوجية) ولنسلط الاضواء على ناحية المعلومات .

ان وسائل التعليم الاساسية هي اللغة والبرامج
 والكتاب المدرسي والمعلم . وهذه الوسائل متداخلة
 تداخلا وثيقا ، الا ان البحث فيها يجد مادته الممبوسة
 السهلة المنال في الكتاب المدرسي ، لانه مرآة اللغة
 والبرنامج وحتى المعلم كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد .

نقول : يجب ان يكون مضمون الكتاب المدرسي
 محتويا على نوعين اساسيين من المعلومات : نوع
 يتصل بمفاهيم العلوم الضرورية المشتركة بين البلدان
 الراقية ، والتي تلبي حاجة التحاقنا بصف هذه البلدان ،
 ونوع يتصل بمفاهيم تيمنا الوطنية الخاصة التي نريد ان
 يكون متوغرا عليها مواطننا الصالح . وبناء على هذا
 ينبغي ان يكون الكتاب الاداة الصالحة لبلوغ هذه الغاية
 باحتوائه على المقدار العلمي المشترك بين الدول
 الراقية .

وهذا الكتاب العربي الذي يوجد بين ايدي ابناءؤنا،
 والذي يصحبه دوما على ادراكها من حيث المعارف
 العلمية ومن حيث القيم الوطنية ، كتابنا هذا الذي به
 يتكون التلمذ ونمنحه الشهادات باعتبار ما حصل عليه
 في ذلك الكتاب من معارف ، ونسبته معلما فيما بعد ،
 ونعينه في مدرسة من مدارسنا ليعلم بدوره النشرء الصاعد
 ... هل هو في المستوى المحدد اعلاه بالنسبة الى المحتوى
 العلمي عند الامم الراقية ؟

مقارنة المعلومات بين الكتب العربية والكتب

الاوروبية :

هاكم الجواب عن هذا السؤال بعد احصاءات
 عديدة ومتنوعة غايتها مقارنة الكتب الاوروبية الرسمية
 (في اسبانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا ، وانكلترا) بالكتب
 العربية كيفما كان بلدها . وما اثبتنا هنا من ارقام يعتبر
 معدلا بين الكتب الاوروبية وبين الكتب العربية .
 ملاحظة : نستسمح القارئ فنغفل عن اسم الكتاب
 ومؤلفه وبلده :

اسم	—	الكتاب العربي	: 44	اسما
اسما	—	«	«	22
«	—	«	«	11
«	—	«	«	106
«	—	«	«	94
«	—	«	«	250

527

(1	الحيوانات :	الكتاب الاجنبي :	112
(2	النباتات :	«	95
(3	جسم الانسان :	«	50
(4	الحسوسات :	«	370
(5	الايوصاف :	«	262
(6	الانفعال :	«	444

الجموع : 1 333

pointe des pieds	37 — متقدم الرجل
poitrine	38 — صدر
poignet	39 — معصم
phalange	40 — سلامى
squelette	41 — هيكل عظمي
sourcil	42 — حاجب
talon	43 — عقب
tête	44 — رأس
visage	45 — وجه
voix	46 — صوت الحلق
ventre	47 — بطن
dent	48 — سن
menton	49 — ذقن

في الكتاب العربي :

عين ، ناب ، كف ، فم ، ظفر ، عظم ، يد ،
اصبع ، وجه ، رأس ، قدم .

ملاحظة (1) الكتب الاجنبية المجردة خاصة بنصف
السنة التحضيرية وسنة الامومة ، اما الكتب العربية
المجردة فهي مقرررة في السنة التحضيرية بكاملها .

(2) كثير من المدارس عندنا في المغرب لا يدرس
الطفل فيها الا نصف الحصاة ، فيجب اذن اعتبار نسبة
التخلف اخطر مما هي عليه في الحقيقة .

(3) اذا اعتبرنا ما سبق فنسبة التخلف بين
التلميذ الاوروبي وبين التلميذ العربي الذي يدرس
الحصاة بكاملها تتعدى 40٪ ؛ اي ان التلميذ العربي
لا يعرف الا 40٪ مما يعرفه التلميذ الاوروبي في نفس
المستوى ، واليكم نوعا آخر من احصائية لها مدلولها :

اخذنا اربعة كتب فرنسية مقرررة في السنة
التحضيرية واربعة كتب عربية من مختلف الاقطار
العربية مقرررة في نفس السنة. واخترنا موضوع «التسم»
فاننا نجد في الكتب الفرنسية الكلمات الآتية مشتركة
فيها بينها . ونجد في مقابل الكلمات الفرنسية الكلمات
العربية الآتية :

واليكم مثلا لقائمة الالفاظ المتعلقة بجسم الانسان:

في الكتاب الفرنسي :

avant-bras	1 — ساعد
bouche	2 — فم
bosse	3 — حدبة
bras	4 — ذراع
cicatrice	5 — ندبة
cil	6 — هذب
cœur	7 — قلب
cuisse	8 — فخذ
cheveux	9 — شعر
chevelure	10 — لمة
corps	11 — جسم
cou	12 — عنق
coude	13 — مرفق
crâne	14 — جمجمة
doigt	15 — اصبع
dos	16 — ظهر
épaule	17 — عاتق
figure	18 — سيا ، وجه
front	19 — جبهة
genou	20 — ركبة
index	21 — سبابة
jambe	22 — ساق
joue	23 — خد
langue	24 — لسان
lèvre	25 — شفة
muscle	26 — عضلة
main	27 — يد
mollet	28 — ريلة
moustache	29 — شارب
nez	30 — انف
oreille	31 — اذن
os	32 — عظم
œil	33 — عين
ongle	34 — ظفر
piéd	35 — رجل
profil	36 — ملامح

الكتب العربية				الكتب الفرنسية
الرابع	الثالث	الثاني	الاول	
غرفة الصف	فصل	غرفة الدرس	0	classe
جدار	حائط	جدار	0	mur
ارض مغطاة بالخشب	0	0	0	plancher
سقف	0	0	0	plafond
باب	باب	باب	0	porte
نافذة	نافذة	شباك	0	fenêtre
طاولة	0	0	طاولة	table
مقعد	مقعد	مقعد	0	banc
0	0	0	0	pupitre
0	0	كرسي	0	chaise
0	0	0	0	bibliothèque
0	0	0	0	gravure
مصورة	صورة	صورة	0	image
معلم	معلم	معلم	معلم	maître
لوح اسود	سبورة سوداء	لوح اسود	0	tableau noir
0	0	0	0	écolier
0	0	0	0	cartable
0	0	0	0	cahier
0	0	0	كتاب	livre
0	0	0	0	ardoise
0	0	0	0	porte-plume
0	0	0	علم رصاص	crayon
0	0	0	مسطرة	règle
0	0	0	0	plume
0	0	0	0	poêle et tuyau

LE CHAT

Vous ne l'auriez jamais deviné :

Celui qui a bu tout le lait du grand pot blanc, c'est moi, le chat. Je me suis régalé : Tant pis pour vous il ne fallait pas le laisser sur la table de la cuisine.

Ensuite, étendu sur votre beau tapis, j'ai fait un bon somme.

C'est là que vous venez me caresser, me dire que je suis beau, mais en voilà assez ! Je ne suis pas un jouet. Je m'étire et à petits pas, je m'en vais. N'insistez pas, je vous prie, car si je commence à baisser mes oreilles et à découvrir mes dents pointues, pff ! gare à ma griffe : elle vous laissera sur la main une douloureuse marque rouge et, croyez-moi, vous la garderez longtemps !

Je n'aime pas le chien : il est brutal et maladroit. Quand je le vois, mon poil se hérissé et je fais le gros dos, Grr !!

Je voudrais bien croquer le serin qui sautille dans sa cage.

Mais elle est accrochée si haut, si haut ! que l'oiseau jaune ne craint rien ; sûr de lui, il me nargue.

La nuit, le grenier m'appartient. Pendant des heures, je guette la souris qui grignote dans son coin. Je l'entends sans la voir, mais je sais où elle est. Gare, si elle se risque hors de son trou : hop ! je ne la raterai pas !

En hiver, j'ai ma place à la chaleur, sur mon coussin, près du radiateur. Qu'importe le vent ou la neige ! Moi, j'ai chaud, je ronronne. Je m'étire et je bâille en montrant ma langue rêche et rose.

Puis, jusqu'à l'heure de ma tasse de lait, je dors, je dors. Je suis bien !... Je suis le chat !

قطتي

(في مستوى التحضيري)

لمنير قطة لطيفة . منير يقدم لها لبنا في كؤوب .
يقبل منير قطته ، قطة منير هي رفيقته في داره ، رسم
لها منير صورة بقلمه .

وهذه قطعة أخرى :

— هري —

هري هري . حسن الشعر
وليه وجه . مثل النمر
وليه عين . مثل الشر
يمشي حولي . حاتي الظهر

ملاحظة : في كل كتاب عربي الفاظ لا توجد في الكتب العربية الأخرى وهي :

في الكتاب الأول : ورق ، املاء ، تلاوة ، قصة .
في الكتاب الثاني : منبر ، خريطة ، ممسحة ،
طباشير .

في الكتاب الثالث : خريطة جغرافية
في الكتاب الرابع : منبر المعلم ، مناء .

مقارنة النصوص :

(1) المطالعة

قبل استخلاص النتائج حول هذا الموضوع ينبغي أن نتم هذه المقارنة بمقارنة النصوص لتكتمل الفكرة وتتضح ، لأن المواضيع ، كما قلنا ، متداخلة بعضها مع بعض ولأن كل موضوع له اثره في غيره . فقلة المفردات لها اثرها في قيمة النصوص وفي أساليب التعبير وفي الحصيلة التكوينية كما سيتضح ذلك فيما بعد . ودونكم إذن النص الفرنسي في موضوع الضفدع مثلاً وهو في مستوى نصف السنة التحضيرية كذلك :

LA GRENOUILLE

Puc était devenu une belle petite grenouille verte qui sautait dans l'herbe ; personne ne l'aurait reconnu. Les gracieuses libellules passaient près du pauvre Puc sans le voir.

Pour se nourrir, il devait maintenant dévorer ses amis les insectes. Le premier jour, il crut mourir asphyxié dans l'étang : il n'avait pas encore l'habitude de vivre dans l'eau ! « Quelle triste existence est la mienne ! se lamentait Puc. Ah ! si la fée Sylvie pouvait me voir ! ».

A ce moment survint un jeune garçon. Avec une épuisette, il captura Puc sans effort. On mit la pauvre grenouille dans un bocal.

Depuis, Puc reste perché tout en haut de sa petite échelle !

واليكم نصا حول الضفدعة في مستوى السنة التحضيرية بكاملها :

— ضفدعة —

ذهب صالح الى حوض ، على حافته ضفادع تنفق ، فضحك صالح من تقيقتها . سمعت ضحكته ضفدعة ، فغاصت في حوضها وتبعته أخواتها فسكنن .
وهذا نص فرنسي في مستوى السنة التحضيرية :

Devant les yeux, les paupières se ferment au moindre danger et leurs cils arrêtent les poussières. Les deux sourcils empêchent la sueur du front de couler sur les yeux.

Les yeux sont très mobiles. Chaque œil ressemble à une bille blanche sur laquelle on voit de petits vaisseaux sanguins. Sur le devant de l'œil, une peau transparente laisse voir à l'intérieur un anneau coloré, nommé l'iris. Au centre de l'iris, se trouve un petit trou appelé pupille. Par ce trou, on voit le fond de l'œil : il est tout noir. La lumière pénètre dans l'œil par la pupille. Celle-ci s'élargit à l'obscurité et au contraire, se rétrécit quand la lumière est vive.

ملاحظة :

(1) يحتوي الجزء الأول على ما يلي : «واعلم يا بني» اننا نعرف ما يحيط بنا بواسطة حواسنا الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس» .

(2) ينقسم الدرس الفرنسي الى قسمين : قسم للتلاوة وهو الذي ترجمناه وقسم خاص بالاسئلة والملاحظات والتطبيقات الكل مصور ملون لم نترجمه .

(3) الدرس الفرنسي للسنة الثانية من التعليم الابتدائي والدرس العربي للسنة الثالثة من التعليم الابتدائي .

(4) عدد المصطلحات في الدرس الفرنسي 14 وفي الدرس العربي 4 .

(5) أرجو من القارئ ان يتحقق بنفسه من الفرق العظيم الذي يوجد بين كتابين في دروس الاشياء الأولى بالفرنسية والثاني بالعربية .

(3) الهندسة :

المستوى المدروس هو السنة الأولى من الثانوي. الدرس الفرنسي يبتدىء بأعمال تجريبية من ضغط سن قلم رصاص على ورقة وسؤال التلميذ عن وصف اثر عمله وتشبيه النقط بنقطة الوقف الخ ، الشيء الذي لا يوجد في الكتاب العربي .

الخط :



(جدار)

السلك المعدني مثلا ليس بخط ولكنه جسم .

فأداعبه . فوق الحجر
وعلى كتفي . وعلى صدري
فاذا لآسى . فأرا يجري
يعدو حالا . خلف الفأر

وهذه قطعة أخرى :

قطبي

(في مستوى الابتدائي الأول !)

لي طمة جميلة أحبها كثيرا . شعرها ناعم وعيناها زرقاوان وانفها صغير . تحرك ذيلها عندما أتمسح بها وأمر يدي على شعرها : فتقطع الي وتدخل رأسها بين ذراعي ، سميت تمطي : كوكو . فاذا ناديت كوكو ! جاءت مسرعة وتمسحت بي . واختي آمنة تناديهما : بش بش ولكن كوكو تحبني أكثر من اختي آمنة .

انا لا اضرب كوكو ولا أزعجها ان كانت نائمة ، لذلك أجدها في انتظاري بباب المنزل كلما رجعت من المدرسة .

ان تمطي اليفة . ولكنها تدافع عن نفسها اذا حصل لها ضرر ، فتخرج مخالبها وتخمش جسم من يعتدي عليها .

انها تجازي الخير بالخير والشر بالشر .

(2) دروس الاشياء :

العربي ج 2 والفرنسي ج 1

العين

العين اثنان الحواس . هي نور الانسان به يهتدي لقتضاء حاجاته ، وبدون العين تصبح له الدنيا ظلمة دامسة . ابداع الخالق التقدير العين بحكمة فائقة ، اجزاؤها دقيقة جدا ، وقد وضعت للمدافعة عنها الحواجب والجفون والاهداب . حافظ على سلامة وصحة هذا العضو الثمين بكل الوسائل الممكنة . اذا اغتسلت بالصابون فلا تدعه يدخل في عينيك ، لا تمسح عينيك بيد تذرّة بل بمنديل نظيف ولا تدع الذباب والحشرات تستقر عليها ، لا تستعمل ماء او منديلا استعماله تبك آخر منعا للعدوى ، ولا تعرض عينيك للنور الشديد ، ولا تقرا في موضع مظلم .

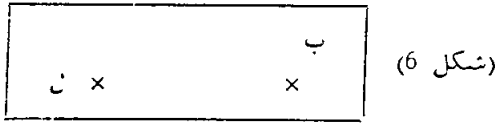
L'OEIL

Les yeux sont très fragiles, mais ils sont bien protégés. Chaque œil est logé dans un renfoncement des os de la tête appelé orbite.

وهذا كتاب عربي آخر في نفس الموضوع :
بند 8 - النقطة . الاثر الذي يتركه سن قلم أو دبوس على قطعة من الورق يدل على وجه التقريب على النقطة .

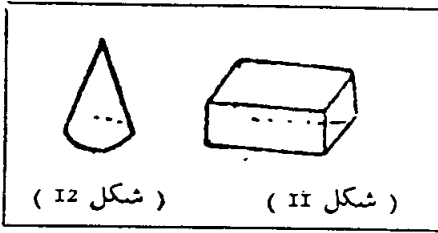
فالنقطة وضع هندسي مجرد عن البعد ، ليس لها طول ولا عرض ولا سمك .

وتسمى النقطة بأحد الحروف ، فنقول مثلا :
 النقطة (ل) أو النقطة (ب) (شكل 6) .



(ثم ينتقل الى الجسم ثم يدرس السطح ثم يأتي في البند 11 الى الخط فيقول) :

بند 11 . سطوح الاجسام تنفصل بعضها عن بعض بفواصل نسميها خطوطا وهذه الخطوط قد تكون مستقيمة أو منحنية ، تأمل متوازي المستطيلات :



(شكل 11) ان له سطوحا مستوية تتلاقى مثنى مثنى في اثني عشر خطا تسمى أحرفه وهي خطوط مستقيمة .

أما المخروط فسطحه الجانبي سطح منحن ، وقاعدته سطح مستوي وينفصل السطحان بخط منحن على شكل محيط-دائرة (شكل 12) .

2 فالخط اذن ينشأ عن تقاطع سطحين وهو على نوعين :

- (1) مستقيم الخ
- (2) منحن الخ

(3) الاثر الذي يتركه سن قلمك عندما يتحرك على ورقة هو خط وعلى ذلك يمكننا اعتبار أيضا أن الخط مسار نقطة متحركة .

ولكننا مهما بالغنا في سحب ذلك السلك حتى يصبح في غاية الدقة فالنتائج لا يكون خطا هندسيا بل يقرب جدا منه .

النقطة :

نرى في شكل الجدار انه اذا التقى خطان منه ، فانهما يلتقيان في نقطة ، فالنقطة هي حد الخط وليس لها طول ولا عرض ولا ارتفاع . ويستنتج من ذلك أن :
« النقطة هي كل ما له وضع مجرد من الطول والعرض والارتفاع » .

من الممكن اعتبار نهاية كل خط أو موضع ثلاثي خطين كنقطة هندسية .

ملاحظة :

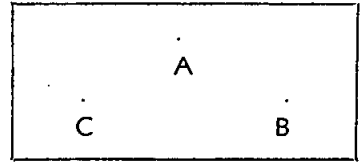
يقول المدرس في الهندسة بأن « النقطة هي حد الخط » بينما الخط لا نهاية له .

1 - Le point :

En appuyant la pointe d'un crayon bien taillé ou d'une aiguille fine sur une feuille de papier, en évitant tout glissement, on marque un point.

On désigne un point par une lettre (en général majuscule d'imprimerie) que l'on place au voisinage du point de façon qu'elle soit bien visible et qu'il n'y ait pas de doute sur le point qu'on veut désigner.

Ainsi la figure 1 représente trois points désignés par les lettres A, B, C.

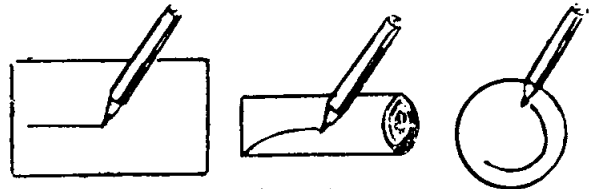


(F. 1)

2 - Ligne :

Si l'on déplace la pointe du crayon ou de l'aiguille sur le papier, sur un mur, sur un rouleau ou sur une boule, on dessine une ligne (fig. 2). Nous exprimons ce fait de la façon suivante :

Un point qui se déplace engendre une ligne



(F. 2)

Souvent une ligne est désignée par une lettre majuscule placée entre parenthèses.

Applications : etc...

خلاصة مقارنة النصوص :

مادتها الضام تكتسب بالمشاهدة والتحليل والتأمل والتركيب والتجربة ، وبعبارة أخرى فإن اللغة تغنى العقل والنفس والروح كما أن العقل والنفس والروح تغني اللغة . ولكننا إذا تعمقنا في هذا الموضوع بالنسبة الى الامر الواقع في يومنا هذا وفي الظروف الحالية التي نعيش فيها وجدنا ان اللغة هي الاداة الاساسية لكل تنمية كيفما كان نوعها والوسيلة الضرورية اللازمة لكل رتمي مهما كانت درجته . وسنعود الى هذه النقطة في مقال آخر ان شاء الله !

المحاضرة :

واذن فان المعلومات والعواطف والافكار التي توجد في الكتاب العربي ناقصة بالنسبة الى المعلومات والعواطف والافكار التي يحتوي عليها الكتاب الفرنسي ، ولو كان هذا النقص ضئيل النسبة فحسب لما اكثرنا لذلك . ولكن هذه النسبة منخفضة انخفاضاً مدهشاً فوجب علينا ان نبوح بالامر وان نقرع ناقوس الخطر ، لاسيما وان المستوى منوط بهذه النسبة ، ومع استواء التعليم يستوي التقدم ومع انخفاضه يحصل التأخر .

وحقيقة الامر ليست في عدد الكلمات بل في اختيارها وفعاليتها بالنسبة الى الواقع والمفهوم والفكرة ، فان الطفل اول ما يتعلم يتعلم الحروف بواسطة اسماء ما يحيط به من الاشياء التي يعرفها . ومن المسلم به ان ما يحيط بالطفل في الوسط الحضري يختلف عما يحيط به في الوسط البدوي . والاشياء التي يعرفها طفلنا المغربي في سن السادسة كثيرة ولكنها مجسمة في ذهنه باللغة العامية . مثال ذلك في الاسماء : خبز (جزر) كرموس (تين) شطابة (مكتسة) وفي الافعال : دار يدير (عمل) يعمل) ناض ينوض (نهض ينهض) وشاف يشوف (راى او نظر) باش (لـ او كي) منين (لما او عندما) لهيه (هناك) بعكس الطفل الفرنسي الذي تكاد جل الفاظه الشفوية تطابق الفاظه المكتوبة .

وحتى نقوم لسانه منذ الخطوات الاولى ، ونجعل لهجته العامية تتقابل مع اللغة الفصيحة يجب ان نعلم طفلنا الالفاظ الفصيحة المقابلة للاسماء العامية التي في ذهنه والتي يمارسها كل يوم وذلك بالتدرج مثل : خبز ولحم وفراش ومط (لا «هر») وخيبة ودار وعين وسن لا «تاب» ولا «خرس» ولا «قاطعة» وغزال (لا «ظبي») وبلبل (لا «هزار») .

ويجب ان تكون غايتنا اولا : امداد الطفل بوسائل التعبير ليصف ما حوله في مرحلة اولى . ثانيا : اطلاعه على ما يوجد في بلاده خارج وسطه في مرحلة ثانية .

النص الفرنسي . حي بالفاظ غنية ، موح بأفكار وعواطف ، واصف بفتح آفاق الخيال ، مشوق للمطالعة والانشاء ، مسل بالطرافة والتشخيص وفن الاساطير الخ ..
النص العربي . قليل الالفاظ ، غير موح ، واصف بالسرود الجاف ، غير مشوق ، غير مسل ، بسيط الفكرة ساذج الشعور الخ ...

في
المطالعة

النص الفرنسي . مضبوط ، مفصل ، مشجع على الملاحظة ، موح بالتشبيه بين الاشياء المحيطة بالتلميذ ، غني بالمصطلحات الخ.
النص العربي . غير مضبوط ، مجمل ، ليس فيه ما يحض على التبصر والملاحظة موح بالقدرة الالهية في صنع الانسان ، قليل المصطلحات واعظ الخ .

دروس
الاشياء

النص الفرنسي . مههد لتلميذ ، آخذ بيده لممارسة الدرس . مشرك اياه في توسع الدرس ، منبه اياه على الفروق ، مضبوط المنطق في تسهيل وتبسيط (من النقطة الى الخط الى السطر) .

الهندسة

النص العربي . غير مههد ، غير آخذ بيد التلميذ ، غير مضبوط ، غير منطقي (من الخط الى النقطة او الى الاشكال ثم الى السطر فالنقطة) .

فكرة اساسية :

ومن تأمل جيدا مقارنة انواع الكتب في اللغتين لكشف اشياء اخرى غير هذه ولا تضححت له ماهي عليه كتيبا بصفة عامة ، من فراغ علمي وفقر فكري مما يفسر أزمة الثقافة العربية التي امتلات صفحات مجلاتنا وجرائدنا بالاسئلة عنها والتأسف عليها . والثقافة انما هي نتيجة اختار المعلومات والشعور والاحاسيس والعواطف والافكار داخل النفس البشرية . فاذا كانت مواد الاختبار قليلة نقص نضج اختارها وبالتالي بقيت نظيرة . والثقافة تعبير عن ذلك الاختار فاذا قل التعبير تحت الثقافة . وبديهي ان المعلومات والعواطف والافكار لا يعبر عنها الا باللغة . واللغة الفاظ من اسم وفعل وحرف وتراكيب تكتسب بالتعليم بمعناه العام كما ان

ألا وهو النظر الى العالم بعين جديدة مدققة فاحصة كاشفة شاكّة متسائلة في آن واحد .

ووعاء العلم في التعليم هو الكتاب هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فاننا نعتبر طفلنا في ذكاء أي طفل من أطفال العالم . فاذا كان المستوى السذي يحصل عليه طفلنا باللغة الفرنسية لا بأس به فلماذا لا يحصل على نفس المستوى بلغته الام ؟ واذا كانت اللغة العربية تنخر من حصة اللغة الفرنسية لغادتها ليس بطبيعي أن يبقى المستوى في نفس الدرجة التي كان عليها باللغة الفرنسية ؟ واذا انخفض المستوى فهناك سبب وهذا السبب هو أننا لا نتعلم بلغتنا ما نتعلمه بلغة غيرنا .

هذا هو القصد الاول الذي يجب على المشرفين على التعليم أن يتصدوه ولا ينبغي بل ليس من الجد في شيء أن يرموا المعلمين بعدم الكفاءة . فلو كان هذا صحيحا لبرزت مدارس أو أقسام بتعليم في المستوى من المستحيل أن يكون جميع المعلمين عديمي الكفاءة دفعة واحدة في جميع مدارس البلاد لاسيما وأن هؤلاء المعلمين كونهم هؤلاء المسؤولون أنفسهم فأصبحوا يرمونهم اليوم بالضعف .

في دروس الاشياء والعلوم :

أما في موضوع دروس الاشياء فنقول :

ان المستوى بالنسبة الى أوروبا يجب أن يحافظ عليه . وهذا المستوى ليس مراعى في كتبنا . فيجب أن نبوئه فيها أولا ثم أن نحافظ عليه فيها ثانيا . فلم لا يتعلم طفلنا بالعربية من العلوم ما يتعلمه بالفرنسية الطفل العربي أو الطفل الفرنسي ؟ أذلك لأن بعض العلوم خاصة بالاوروبيين وبعضها الآخر خاص بالعرب ؟ قد يمكن أن يكون ذلك صحيحا بالنسبة الى باب أو بابين مثل باب الخنزير أو باب الخمر ولكنه غير صحيح بالنسبة الى الابواب الاخرى . ولماذا تفصل أجزاء العين للطفل الاوروبي في الابتدائي الاول ولا تفصل بنفس الدقة للطفل العربي في نفس السنة وبإضافة معلومات أخرى زائدة لاسباب منها مرض الحثار (التراكوم) مثلا الذي يفتك بمناطق الجنوب في بلدانا .

ولماذا يكاد درس العين هذا الذي يلحق في الابتدائي الاول الفرنسي لا يساويه درس العين في المتوسط الثاني العربي ؟ واذا أرجأناه الى هذا القسم الاخير افطنا منا أن الطفل الفرنسي سوف لا يتقدم في دراسة العين وينتظر أن يلحق به الطفل العربي حتى يصل الى

ثالثا : اطلعه على ما يوجد عند غيرنا من البلدان الاخرى . وبعبارة أوضح نسهر على تكوينه من حيث حاضر بلاده وحاجياتها (التكوين الوطني) ثم على تكوينه من حيث حاضر العالم السذي يعيش فيه (التكوين الانساني العالمي) حتى يتلامم فكره الفتى مع حاجيات وطنه الصغير ، وينسجم فيما بعد مع مقتضيات وطنه الكبير وهو الانسانية جمعاء .

واتذكر أننا في صبانا لما كنا في المدارس الفرنسية الاسلامية كما كانت تسمى آنذاك ، تعلمنا بلغة أجنبية جميع اشياء الحضارة البعيدة عن وسطنا في ذلك الزمن . واتذكر الى يومنا هذا : اذ ما زالت راسخة في ذاكرتي ، تلك الصور بأسمائها المطبوعة باللون الاحمر التي كنت اراها على جدار القسم ، وفي الكتاب الفرنسي : من قطارات ومحطاتها وأثاث أوروبي مرتب حول المدخنة في «الصالون» ، والبيانو بارز في جانب اللوحة ، ومن بواخر على البحر ماخرة يتعالى بخارها في السماء ، كما أتذكر تلك الصور الخاصة بالبدو ، رجالهم على أفراسهم والبنادق مرفوعة فوق رؤوسهم ، ونساؤهم جالسات أمام الخيمة في صف واحد ، كل واحدة مشغولة بعمل من أعمال تحضير الغذاء ، هذه تعجن وتلك تفتل «الكسكس» واخرى عند الفرن تدفع بالحطب الى النار . كل هذا وأنا قاطن في قعر مدينة فاس لم اكن رأيت من قبل لا قطارا ولا باخرة ولا بيانو ولكن مخيلتي الفتية كانت تعلق بي في ذلك العالم البعيد الذي كان يبدو لي غريبا وشد ما كان شوقتي عظيما لرؤيته والتعرف عليه والسفر اليه على متن ذلك التططار أو تلك الباخرة والعزف على ذلك البيانو والحصول على اثاث تلك المنازل الجميلة والركوب على الخيل واطلاق نار الفرح من فوق صهواتها ثم الاستراحة داخل الخيمة والنهتج بطرانة حياة البادية لان الطفل يستهدف الحركة والمغامرة ويصبو الى المزيد من التعرف على كل شيء وبالخصوص على ما لا يحيط به من الغريب والجديد في كل ميدان .

والتعليم اذن مرحلتان مرحلة ادماج الطفل أولا في وسطه حتى لا يقتلع عنه ويكسون ذلك بتسديد لغته الفصيحة منذ البدء وبث حبها في قلبه وامداده بأداة الوصف مع تمرينه على ثروة لغته حتى يستطيع التعبير عما يختلج في نفسه ، ثم بعد ذلك الاخذ بيده ورفعها الى ادراك حقائق الامور التي تحيط به وابرار سر تركيبها وقوانين حدودها واسباب وجودها ليدرك من وراء الشيء اشياء أخرى لم يكن يشعر بوجودها من قبل وأن الملاحظة والتأمل واجادتها كفيلا يجعله يكتسب عنصر العلم

الشهادة الثانوية او البكالوريا في مستوى واحد ؟ اننا لا نهم ذلك .

ولقد قارنت غير ما مرة مستوى أستاذ عربي حاصل على اجازة في العلوم الطبيعية بالعربية (بمعناها الطبيعي لا الفيزيائي!) قارنته بمستوى أستاذ فرنسي حاصل على نفس الاجازة في نفس المادة فوجدت ان هذا يفوق ذلك أضعافا مضعفة .. وان كنتم في ريب مما قدمنا ... فمارنوا بأنفسكم بينهما يتضح لنا جميعا خطر الداء !

الهندسة :

وفي الهندسة ، لماذا يزخر الكتاب الفرنسي بالتهديدات والتطبيقات والتواضيح البسيطة المفصلة والمنطقية معا ، فيقول بأن النقطة هي عنصر الخط يبدأ هذا بها ، ثم اذا تحركت النقطة نتج عن اثر تحركها ما يسمى بالخط الذي هو بدوره ، مهما تغير اتجاهه ، أصبح عنصر الزوايا التي هي بدورها عنصر المثلث . واذا تعددت الزوايا نتجت عن ذلك اشكال المربع والخمس والمسدس الخ . واذا تحرك هذا الخط في اتجاه جانبي نتج عن ذلك التحرك السطح ومركباته من هرم ومخروط ومكعب الخ . ولماذا ينحو الكتاب العربي نحو مخالفا يؤدي الى الابهام والغموض والتعقد لاسيما وان الدرس الهندسي الذي مثلنا به خاص بتلاميذ السنة الاولى من الثانوي أي بأطفال عمرهم لايتعدى اليوم أربع عشرة سنة على أكثر تقدير ، ويبدأ بالخط واي خط ! ذلك الخط الوهمي الذي يجب ان يقدره التلميذ على جدار ويقدر ان سببه هو الفاصل بين لبناته ! ثم يقول الكتاب بان النقطة هي ملتقى خطين من خطوط ذلك الجدار فيختم بهذا التعبير المدهش لعقل التلميذ : « هو كل وضع مجرد عن الطول والعرض والارتفاع » فأي وضع ؟ وما هو الوضع ؟ واي تجريد ؟ وما معنى التجريد ؟ ومعنى هذا كله في الحقيقة لاشيء ! ، العدم ! وقل مثل ذلك في الكتاب الآخر الذي ينتقل من « بند » الى « بند » ويرجع ويستدرك الخ .. كل هذا مما يفسر لنا تلك الغرابة في التفكير التي نلاحظها عند المكونين علميا بالعربية !

الخلاصة في موضوع الكتاب المدرسي :

هذا هو الامر الواقع ! اضيف ان هذه المقارنة الموضوعية تتبعناها حتى نهاية السنة الثالثة للثانوي أي سنة الشهادة الثانوية ، شعبة شعبة ومادة مادة وصنفا صنفا ثم بعد ذلك عكفنا على طوائف الالفاظ من

حيث المفهوم ومن حيث الدقة ومن حيث الحيوية ومن حيث المسيرة والتدرج والدرجان ، ولم نعرها اهتماما من حيث الغرابة اذا كانت الكلمة تؤدي معنى حديثا وتسد لنا فراغا في اللغة ، الى غير ذلك من عمليات البحث والأحصاء المتداولة ، متحصرين انواع الكتب المقررة في سائر الاقطار العربية للقراءة والمحفوظات والنحو والرياضيات والعلوم والتقنيات الخ .

واما المقارنة من حيث الاخراج والطباعة والتجليه والتقديم ، فنتيجتها ان الفرق شاسع جدا بين الكتب العربية والكتب الفرنسية اذ الكتاب العربي لا يلي مقتضى المبادئ التربوية الاساسية من وضوح الحروف وشكلها وتنوعها ومن ضبط الصور والرسوم ودقتها ونصاعتها وتلوينها ومن ترتيب الصفحة وابرار فصولها وفقراتها الخ ..

فتبين لنا علميا — لامجال لاي شك فيه — ان هذا التباين العظيم بين محتوى الكتاب العربي وشكله وبين محتوى الكتاب الاوروبي وشكله ، لهو اول الاسباب في انخفاض المستوى وعدم تقدمنا في القضايا التعليمية والمشاكل اللغوية بصفة عامة :

اذ كيف نريد ان يكون تعليمنا في المستوى ومحتواه ناقص بالنسبة الى هذا المستوى الذي نريده ؟.. كيف نريد ان يكون تلميذنا عالما بما لانعلمه اياه ؟ كيف نريده معبرا ونحن لاننده بوسائل التعبير ؟ ونريده واصفا ونحن لانقدم له اداة الوصف ؟ كأننا نريده ان يحسب دون ان نعلمه الحساب ! او نود ان يدافع عن نفسه في معركة بينما نكبل يديه !

ما يعرف ابناؤنا الا ما علمناهم ! وانهم لفي المستوى الذي اردناه لهم انهم يعبرون كما علمناهم ان يعبروا لا اقل ولا اكثر ويصفون بما سمحنا لهم ان يصفوا وجعلناهم يحسبون بالارقام القليلة التي علمناها اياهم ، واخيرا فانهم يدافعون كما تأتي لهم ان يدافعوا بل هم صورة واضحة لما نحن عليه ، صورة وفيه مخلصة .

الكتاب المدرسي والمعلم :

وما قلناه في تلميذنا نقوله في معلمه حرفا بحرف ، اذ المعلم الا تلميذ انهى دراسته ، تلك الدراسة التي وضعناها له بمستواها ومحتواها ، من حيوانات ونباتات ووصف وادوات تعليمية وبرنامج الكل ناقص فكونه بلغة وكتب وادوات تعليمية وبرنامج الكل ناقص واذا كان تكوينه ناقصا فاننا نحن الذين قصرنا في

تصنيف الكتب المدرسية للتعليم الابتدائي ، اختيارها واستعمالها :

«يجب أن يعكس كتاب التعليم الابتدائي التقدم الذي حصلت عليه علوم التربية ، وأن يتضمن المناهج المناسبة مع نفسية الطفل ... وأن تكون مواده معروضة بمنطق ومراعاة اهتمام الطفل وقدرته الذهنية — يجب أن يحتوي كل كتاب مدرسي ابتدائي على مجموعة من الحوادث والأفكار والإحياءات مطابقة للواقع وللعلم مع السهر على تجديدها يوماً بعد يوم — يجب أن تعطى عناية خاصة للمفردات والأسلوب حتى يكون تقدم التلميذ تدريجياً لا مبعثراً وغير منظم — يجب أن يكون لدى الهيئة المختصة بشؤون الكتاب المدرسي ثابتهات الكتب المختارة الصالحة التي «توجد عند الأمم الراقية حتى يتسنى لها أن تقارن بين ما يصدر في بلادها وبين ما يصدر عند غيرها» وذلك للمحافظة على المستوى — الكتاب المدرسي هو الكتاب الأول الذي يدخل الأسرة — يجب أن يكون الكتاب المدرسي في يد كل تلميذ — في البلدان التي فيها حرية الطبع يجب بصفة خاصة أن يتفقد المسؤولون محتوى الكتاب المدرسي وقيمه العلمية بالرجوع إلى الاختصاصيين في الموضوع وطلب رأيهم فيه ويحسن أن يجرب نوع من الكتاب على نطاق ضيق قبل اقراره حتى تتبين صلاحية نشره على نطاق واسع — يجب أن يتوفر في الكتاب المدرسي على تدرج العلوم من قسم إلى قسم الخ ...

يتبع

تكوينه ! وإذا تهرنا في تكوينه فذلك لأنه نقصنا الجهاز الفني الذي يبين لنا الدرجة التي يجب أن نتمسك بها في التكوين وبيدنا بالادوات الصالحة لذلك التكوين . وهذا الجهاز الفني هو «المعهد التلقيني» Institut pédagogique الذي يوجد عند كل الأمم الراقية ولا يوجد عندنا ! ووجوده حيوي بالنسبة إلى الأمم المتخلفة غايته تتبع رقي شؤون التعليم عند سائر الأمم والسهر على أن تكون دوماً في بلاده مسيطرة لما هي عليه عند الأمم الرائدة حتى لا يحصل أي تأخر وبالتالي أي تخلف (إذا تكافأت الاوضاع) .

وان قال قائل ان هذا المعهد موجود عندنا في البلاد العربية ومع ذلك لم تتحسن أوضاع التعليم ولا مستواه قلت : وجود الجهاز لا يكفي وحده ان لم توضع رهن اشارته الطاقات والوسائل الكفاة الكافية وان لم يعره المسؤولون ما يجدر به من اهتمام وما يليق به من انصات .

ولنتأمل ما جاء في التوصية 48 لوزارات التربية الوطنية المنبثقة عن الدورة 22 للمؤتمر الدولي حول التربية الوطنية المنعقد في جوفيف سنة 1959 .